الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٢٥ — ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٥٦ — أول فبراير سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

رجل للبحر

للكاتب القصصي هـ. أ. مانهود

بقلم احمد حسن الزيات

عثرت فجأة على الجوسق (١) كما يعثر متصفح الكتاب على صورة ما كان يتوقعها. وكان هذا المنزل الصغير قائماً في صدر الخليج كأنه جوهرة غليظة الصقل رُكبت على هلال مِشْبك. فإذا أردت أن تصل إليه سرت على الرملة أو اتخذت طريقاً ضيقة تسلسلَ على حفافيه نهاد غلان من وحشي النبات، تتشعب قبل أن تبلغه إلى شعبتين تسيران مع الحوائط المتداعية للحديقة، ثم تجتمعان من وراء فتصيران مواطئ أقدام تتنقل حتى تدخل المنزل، فلا يسعك وأنت ترى هذا الطريق المطموس إلا أن تظن أن الذين مروا بهذا المنزل — على ندرتهم — لم يحسوا الرغبة أو لم يجدوا الجرأة ليقتحموا بابه

كان على سطحه ثلاث مداخن شواهق شقت السقف فبدا بها كأنه الكرسي المقلوب، انفتل على جنباتها خيوط دقيقة من الدخان، وعلق بهاماتها سيقان طويلة من القش، يحركها مرّ النسيم فترقص على إيقاع متخيَّل. وكان ذلك السطح المصفح بالأردواز قد اصطبغ بصبغة الذهب الكابي فشابه لونه لون التفاح على أشجاره المارشة فوق الحائط الخلفي. وفي الحديقة اعتصم بالجدران الواطئة المنهارة أدغال شواجن من عنب الكشمش (١)؛ وعلى صدع من صدوعها قامت شجرة وحيدة من شقائق النعمان كانت تركع وتقوم في صلاة متتابعة ضائعة تحت عصف الريح المحملة بذرات الرمل.

(١) الجوسق هو البيت الريفي المنفرد

(١) هو العنب البناتي

لا يستطيع واصف هـذا الجوسق أن يقول إنه ينظر إلى البحر ؛ إنما كان يلاحظه عن عُرض ملاحظة الحامي يعتقد أنه فى أمن من ارتفاع المد مهما طغى . وكان على العشب الذابل الحائل زورق أُخرج من الماء فنسجت العناكب على جوانبه غزلها الواهن الهش ، وقد نُقش على جانبيه بحروف لا تكاد تُقرأ :

(ميكائيل سوان — بورت آن)

وعلى مقربة منه شباك صيد قد نُشرت على أربعة أوتاد فى الرمل على شكل المدرج ، تدور بينها فراشتان أمام الذباب الداهل الغافى ، وألفافٌ من النبات تزدهر تحت النافذة وتنظر خُلسة إلى البحر ، وكومة من الأوراق الصفر قد ارتفعت إلى عماد الحائط ، ومجداف غاص منحرفا فى الرمل متجها إلى الجوسق ، وقد كُتب على صفحته بالحديد المحمى كلمة The كأنها الرمز المهدَّد

دفعت باب الحاجز فتنبه الحارس ، وهو قط أصفر اللون قد رقد مستديراً فى مَصْيدة عتيقة من مصايد السرطان البحري ، ثم نظر إلىّ لحظة وعاد إلى نومه من غير أن يتحرك . وكنت قد جاوزت الفناء المبلط بالحجر الغليظ ، ورأيت المطبخ تسطع منه روائح الوقود من اليوكالبتوس والصنوبر وقد دخله ضوء الشمس من بعض الفُرُجات فتدوَّر فوق أرضه كالدنانير ، والموقدَ تندلع فى بهرته ألسنة اللهب الأزرق ، والمائدةَ ينبسط عليها خِوان ممزق ، وامرأةً دقيقة العظام صغيرة الجثة قد حسرت عن ذراعيها وأخذت تكوى بعض الثياب على هذه المائدة فى نشاط وهمة ؛ وكان شعرها القليل قد ردَّته بعناية إلى قذالها فانعقص خفيفاً على قفاها ، ثم فَرَقه على الجبين خط كأنه الطريق فى أرض مغبرَّة بور . وكانت شفتاها مضمومتين مزمومتين فتحسبها تجرعت دواء مراً بقى مذاقه فى فمها . فلما قرعت عليها الباب فزعت ، فشرحت لها سبب زيارتى إياها ، فقالت تعيد ما قلت فى سذاجة :

— تريد لبنا ؟ ثم وضعت مكواتها على وعاء وذهبت إلى خزانة الطعام فكشفت عن إحدى الجرار وقالت : نعم أستطيع أن أعطيك لبناً .. وبيضاً أيضاً . تفضل فادخل هنا واقعد قليلاً . ثم تقدمتنى إلى حجرة ففتحت بابها وقالت : أعتذر إليك من سوء النظام فإن المنزل صغير . وأسرعت إلى الثياب المطوية الموضوعة على الكرسى فرفعتها ، وإلى نسخة ضخمة من التوراة كانت تشغل مقعداً من الشعر فنقلتها ؛ ثم نفضت الغبار بذيل مِيدَعتها ، وأصلحت ما تهوش من الغطاء المطرز على مسند الكرسى ثم ولت وهى تقول : لن أغيب عنك طويلا . دقيقة واحدة

* * *

كان لابد أن تعروني هزة من البرد فى هذه الحجرة . كان أمامي صليب من البلور معلق على الحائط ، ونوع من الأراغين جاثم فى الزاوية . فوقع فى نفسى أن أعزف على هذا الأرغن المصفَّر معتقداً أننى متى أمررت أناملى على مضربه غنى معى هذا الكاهن (١) المجهول الذى يحرس الباب ، وذلك (اللورد نلسون) ، وهذا (الطفل المبذر) ، وسائر هؤلاء الذين يحدقون النظر فىَّ وهم محصورون فى أُطُرهم الغُبْر فتملأ نظراتهم نفسى روعة ورهبة . لقد عددت — زيادة على عين نلسون الواحدة — ثلاثين زوجاً من العيون ، فكنت على وشك أن أعلن لهذا القاضى أننى غير مذنب . وكان فى الحجرة غير ذلك تذكارات وكتب تكفى لإقامة سوق : أصفاث من السرخس الجاف ، وزجاجة من ماء الأردن ، وأهرام من فواكه الشمع قد غشَّاها الغبار ، وأوانٍ وشماعدُ قد قامت على جدار

(١) كلها صور معلقة على الحائط

الحجرة كما يقوم السائلون في زوايا الطرق . وكان الورق الملون الذي يكسو الحوائط قد حال لونه فانكفأ ، وذهب لصاقه فتهدل ، وموقد المدفأة يعطر من حين إلى حين رذاذاً من السناج على طاقة ضخمة من الزهر المصنوع من الورق الأبيض . وعلى مسند النافذة كان هنالك شيء واحد يسترعي النظرَ جماله : نموذج مصغر لسفينة من سفائن القرن الخامس عشر صُنع من خشب الزان ، وصُبغ بلون الدخان ، و نصب عليه شراع مقبَّب كأنما ملأته الريح . وعلى جوانب السفينة أصص كبيرة فيها صبّار تدلت أوراقه على شكل السكاكين ؛ ومن وراء السفينة تبصر من النافذة المفتوحة تبيج البحر الأدهم وقد انبسط وامتد حتى التقى بالأفق ؛ وعلى غواربه المواجة يجرى زورق صغير كأنه الورقة الذاوية

كان يصدر عن المطبخ أصوات مختلفة كرنين الأكواب واصطدام الصينية وسقوط الملعقة . ثم دخلت العجوز الصغيرة فجأة فنشرت خواناً أبيض غير مصقول ، ورفعت عن المائدة المزعزعة ما يغطيها من الأشياء ؛ ثم مدت الخوان فوقها بعناية الورع الذي يزين بالوشي صدر الهيكل . ولما حدثتها عن الوضع الذي تسقط عليه أطراف الخوان حدقت ببصرها إلى فجأة وقالت متمتمة وهي تفكر :

نعم يا سيدي : أجنحة من طير النورس كما قلت ؛ زوج في كل زاوية

ثم صمتت لحظة ، وظهرت في عينيها الوداعة والحنان كأنها كانت تجتلي رؤيا داخلية . ثم عادت تقول :

إن ولدي كان يقول مثل هذه الأشياء : كان يقول إن نسائج العنكبوت هي أشباح العجلات المحطمة والتروس المهشمة ...

ثم وضعت على الخوان كوباً وأناملها ترتجف . فقلت لها : صورة جميلة ! لقد كنت أود لو عرفت ولدك ، فإن القليل من الناس هم الذين يسيرون في الحياة وعيونهم مفتوحة . فاختلجت يداها وتقلصت أناملها فندمت على أن تكلمت . قالت : إن ولدي مدفون هناك على الرابية . وكأنها كانت لا تزال تسمع جَرْس الكلمات الذي خفَت فبدا عليها أثر الشك . وصوبت طرفها إلى ركن من أركان الحجرة وقالت : أنا وحدي التي أعرف أنه مدفون هناك .

ثم تألفت على الرغم منها الحروف ، ونطقت على غير إرادتها الكلمات ، فقالت :

«أنا أعلم أنك غريب ، ولكن لا بأس . إن سري يثقل أحياناً على صدري ، فإلى من أستريح بمكنونه وأسترفه من عبئه ؟ ليس لي إلا ميكائيل زوجي ، وهو لا ينبغي أن يعرفه مطلقا . إن ذلك يقطع نياط قلبه البائس ! واستمرت شفتاها تنفرجان وتختلجان ولكنني لم أسمع شيئاً. ثم دلفت إلى النافذة وتناولت السفينة بيدها في حيطة ورفق ، وافتر ثغرها عن ابتسامة شاحبة أضاءت على شفتيها كما تضيء الشمعة الضئيلة في ركن الحجرة الواسعة المظلمة ، ووضعت أمامي نموذج السفينة ثم تطرحت متهالكة على مقعد كأنما أنصبت نفسها في عمل لا تطيقه ، وقالت بصوت خافت متهافت : ذلك من صنع ولدي ! لقد كان ماهر اليد ثاقب الذهن خصب الخيال ، يتصور الأشياء العجيبة ، ويروى الحوادث الغريبة ، وذلك مما وقع له في السفر أو سمع به في البلاد . لقد كان يخيل إلى أني أقرأ التوراة وأنا أسمعه . لماذا أخذه الموت ؟ لقد كان الله حريا أن يعلم ... ! ولكن لا ينبغي أن أشكو هذه الشكوى ، ولا أن أجزع هذا الجزع . إن ولدي جون كان لا يبرح يقول :

إن الوفاة خير من الميلاد . لقد كان يعرف ...

وكانت تمسح بيدها على جدار السفينة فى حال من الذهول خدّرت أعصابها ، وأنامت أوصابها ، فعاد صوتها خافتاً كحديث النفس ، وكلامها عذباً كرنين الموسيقى ، فكانت كلماتها أشبه بالورود تُنثر على قبر !

« لقد كان من الطبيعى أن يصير ولدى بحاراً ، فان ملح البحر كان يلهب دمه . كان وهو صغير يتحدث عن الأمواج كما يتحدث عن أخواته . وكان يسمى كل موجة اسماً : فهذه (الكرنبة الجعدة) وتلك (الكلابة) وهاتيك (الكسولة) . ولم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى كان يعرف كل بحار العالم . لقد كان مساعد الربان فى سفينته . وكان كلما عاد من سفرة لاحظت فرقاً واضحاً فى رجولته وكفايته واستعداده ، فأقول لنفسى وأنا أنظر إليه :

إن جون ولدى لا يرتاع لشىء ولا يتضعضع لحادث !

لقد صنع هذه السفينة الجميلة أثناء رحلته الأخيرة . وكأنى أسمعه الآن حين عاد وهو يثبّت هذا النموذج على لوح من الخشب يقول :

« هاك يا أماه ! تلك سفينتك قد أرست على المرفأ »

وكان يضحك وهو يقول لنا : تحققوا من وثوق المركب . ولما دخلنا الدار أنا وميكائيل وجدنا رزمة من الأوراق المالية تكفى أن نعيش عليها خمس سنين ، ثم قدراً من الطباق لميكائيل ، ومشبكاً لى . ولا تسل عما ألم بنا فى تلك الليلة من الأطياف الرائعة والأحلام الجميلة !

لبث فينا ثلاثة أسابيع كانت كلها فرحاً ومرحاً وبهجة ؛ ثم حُمّ الفراق وأفد الرحيل ، فصحبناه ذات صباح إلى (بورتسدون) . وطلب إلينا أن نرقب سفينته وهى تقلع فى بكرة الغد إلى عرض (المنش) ، ووصف لنا شكلها ولونها وسمتها حتى لا نضلها بين السفن ؛ وقال وهو يودعنا إنه سيعود عما قليل

وفى الحق لقد عاد بعد قليل ! فقد ثارت يوم رحيله عاصفة هوجاء زمجر فيها الرعد وهزمت الريح حتى شق على المرء أن يسمع نفسه . وكنت أنا وأبوه نرى مع ذلك أن الأمور تجرى لولدنا فى مجراها الحسن

رصدنا سفينة (جون) وهى (سبيننج كلود) ولكننا لم نر شيئا . على أننا رجونا أن الأمور تجرى لجون فى مجراها الحسن

ولا يزال ميكائيل يرجو !

انقضت بضعة أيام . وفى يوم سبت رأيت طيور النورس تحوّم هائجة على رأس (كنتى) . وقد ظلت ضحوة النهار تتشاجر وتتطاير كأنها قصاصات من الورق تناثرت فى الهواء

لم أدر ماذا كانت تعمل ، فقد كنت من عملى فى شغل شاغل

وبعد الظهر أقبل رجلان غريبان يطلبان إلىّ لوحاً من الخشب وقطعة من قماش الشراع ، فأنهم وجدوا على الساحل تحت الرأس جثة بحار قذف بها البحر . فأعطيتهما ما سألا ، وذهبا ثم عادا بالجثة وهما يلهثان تعباً ، ويتصببان عرقا ، فوضعاها فى مخزن الحب . وكانت تتدلى من تحت القماش الذى لفّ به الجثة مِزقة من قميص كأنها الجناح الكسير . فلما انصرف الرجلان نضوت القماش عن الجثمان وفحصت القميص فعرفته . عرفته لأنى طالما غسلته وكويته ! لقد عاد ولدنا جون !

كشطت الأصداف العالقة بحذاء جون ؛ ثم فكرت فى زوجى فسألت الله أن يعيننى على إخفاء السر عنه . فاستجاب الله لى ، إذ لم يدع فى جثمان جون ولا فى لباسه ما ينم على شخصيته إلا هذا القميص ؛ وميكائيل ضعيف الذاكرة فلا يستطيع أن يعرفه . ولما رجع فى المساء ذهبت

إلى لقائه ، وأخبرته أن الأمواج ألقت فى الساحل جثة بحار . فأقبل يراها . وما أنس لا أنس النظرة التى ألقاها على الغريق ! ولكنه لم يعرف ولدنا جون

ثم خشيت أن يأتى نبأ الغرق فيقوض كل ما بنيته ، فكتبت إلى النواخذة[1] أتحقق الخبر ، فأجابونى أن كل شىء كان على أحسنه ؛ وأرسلوا إلىّ ثبت الموانئ مسجلاً فيه ما تلقيه السفينة من الوسوق، فاستنتجت أن ولدنا ألوت به هبّة من الريح العاتية ، أو موجة من الأمواج الطاغية ، وهو يحاول على ما أظن أن يلقى نظرة الوداع على منزله . ولم يكن النواخذة على علم بمصرعه . ولن يعلموه هم وميكائيل إلا يوم تؤوب السفينة وعليها مساعد آخر . ولكن (اسبينج كاود) لن تؤوب : فقد ابتلعها البحر البعيد على الشاطىء الأقصى من العالم . ونجا البحارة وتفرقوا فى البلاد شذر مذر . ويعتقد ميكائيل أن جون استقرت به النوى فى مطرح من مطارح الغربة ، وأنه سيكتب إلينا متى جمع ثروة . وأسأل الله أن يثبته دائماً على هذا الاعتقاد وذلك الأمل !

تحركت أذنا القط الأبيض لحظة حين عبرت الفناء ، ولكنه لم يفتح عينيه تجاهلا لوجودى . وكان الخليج خالياً ، والزورق الذى رأيته منذ ساعة يجرى على الموج قد اضطجع على الرمل كأنه سمكة ضخمة ميتة . وكان (ميكائيل سوان) يخيط زنبيلاً مملوءاً سراطين بسلك من الحديد . فتقدمت إليه وسلمت عليه فهز رأسه فى ذهول وقال :

يوم سعيد ! نهار ضاح جميل !

وكان الرجل عملاقا أشيب الشعر معروق الأشاجع ، له عينان مظلمتان عميقتان تذكرانك بغرفتين مفروشتين بالقطيفة القاتمة . وكان فى جوف الزورق سمكة غريبة الشكل مهشمة الجسم ، فتناولها ميكائيل بيده وقال فى هدوء وبطء :

عجيبة من عجائب خلق الله ! قنصتها فى مصيدة من مصايد السراطين ثم قتلتها أسرع ما أستطيع

وكأنما كان الشيخ يستغفر لنفسه قوة خفية . فحدثته عن سمكة تشبه هذه السمكة يجدها المسافرون فى بحر الكرايب . فنظر الرجل إلى وهو يفكر ؛ وبدا عليه أنه كان ينصت الكلام الذى يلقيه ، كما ينصت البنّاء الآجرّ الذى يبنيه . ثم قال وهو يومئ برأسه إلى الجوسق: لقد حدثتك عن ولدها . أليس كذلك ؟ إننى أعلم كيف ترك المركب مرساه وهى معجبة ببحاره . إنها تعتقد الآن ولا شك أنه فى جزيرة من الجزر النائية . ولا بد أن تكون قد سألتك : هل سمعت الناس يتحدثون عن جون سوان؟

إن ولدنا عاد ! ولكن زوجتى لا تعلم . إنها ضعيفة البنية هشة العظام ، فلو علمت أنه دفن فى مقبرة المجهولين لغشيتها ولا ريب صرعة الموت

إن ولدى خطفته موجة من طواغى الموج ، ثم دفع به التيار إلى الشاطئ مشوّه الوجه مستسرّ المعالم . فعثرت عليه قريباً من الرأس حين تنفس الصبح ، فنزعت عنه ما ينم عليه من الأرواق والأزرار والعلائم ، وذهبت قُدُماً إلى (بورتسدون) ألتمس من يحمله ، فلم أكد أترك المكان حتى مر بالجثة رجلان فنقلاها إلى المنزل

إنها لم تعلم حتى اليوم أن ذلك الجثمان الممزق الذى كان مسجّى فى مخزن الحب كان من لحمها ودمها . لقد لقيتنى فى ذلك المساء فقالت لى فى لهجة تنم عن الأسى المكنون : شاب مسكين وجدوه على الساحل ! لا بد أن نبذل ما نستطيع لنعرف من هو . إن أمه تتحرق الآن شوقاً إلى لقائه ، وتسأل الرائح والغادى عن أنبائه ... !

الزبات

(١) النواخذة جمع ناخذاة وهم أصحاب السفن ووكلاؤهم